على هامش الفلسفة

طريقة الأخلاق أيضاً

للأستاذ محمد يوسف موسى

رأينا عدم غناء الطريقة الاستنتاجية فى الوصول إلى مُثُل عليا مرضية من الجميع ؛ وهذا ما دفع فريقاً من الفلاسفة للتوجه وجهة أخرى فى تعرف الخير والشر والحسن والقبيح ؛ هذه الوجهة هى الحاسة الأخلاقية أو اللمحة ، حاسة المعرفة المباشرة التى لا تحتاج لنظر واستدلال ، بل يكفى أن نلجأ إليها لتهدينا سواء السبيل

هذه رسالة كل فلاسفة أخلاق العاطفة تقريباً كرجال المدرسة الإنجليزية والأيكوسية فى القرن الثامن عشر أمثال :

شافتسبرى (١) ، وهتشون (٢) ، وآدم سميث (٣) .

ثم جان جاك روسو الفيلسوف والكاتب الفرنسى المعروف ، وشارل جوستاف جاكوبى العالم الرياضى الألمانى الذى عاش فى القرن التاسع عشر

« هتشون » مثلاً يرى أن هذه الحاسة تميز الخير من الشر كما تميز العين الألوان ، وتجعل المرء يحس مسرات وآلاماً معنوية خاصة هى نتيجة ما يعمل من خير وشر . و « روسو » يرى فيها ، وبعبارة أخرى يرى فى الضمير لأنهما اسمان لمسمى واحد ، القوة التى تلهمنا القانون الأخلاق . تراه يناجيه مناجاة خالدة يقول فيها : « أيها الضمير ، أيتها القوة الفطرية الخالدة ، أيها الصوت السماوى ، أيها القائد الأمين للانسان الجاهل المحدود — وإن كان ذكيًّا — حرا فى إرادته ، أيها القاضى الذى لا يضل فى تمييز الخير من الشر ... إنه أنت أشرف جزء فى طبيعته ، وإنك الفضيلة من أعماله . بدونك لا أشعر بما يرتفع عن الحيوانات ما عدا الميزة التى تجعلنى أضل فى ميدان الأخطاء ، وهى أداة الفهم التى لا قاعدة لها ، والعقل بدون مبادئ يسير عليها »(٤) . أما « جاكوبى » فيقول : « ما هو الخير ؟ كل امرئ يملك فى قلبه إلهاماً مباشراً به وقوة إلهامية تبينه له »(٥)

هذا الفهم ؛ هذه الطريقة فى تعرف القانون الأخلاق يستحق ما وجّه له من نقد شديد من كبار المفكرين وخاصة الأستاذ العلامة « ليفى برهل Lévy Bruhl فى مؤلفه القيم « الأخلاق وعلم العادات » حين يقول : « هذا المذهب يفترض أن الطبيعة الإنسانية هى واحدة فى نفسها لا يعتورها التغير فى جميع الأزمان والبيئات ، وأن محتوى الضمير الأخلاق يكون مجموعاً منسجماً منظماً ، ولكنا علمنا سابقاً كيف كان اختلاف الأفكار الأخلاقية شديداً حسب العصور المتعاقبة ، وكيف اختلفت وتختلف

لا يتمكنون جميعاً من الالتحاق بالجامعة ، وأن الكثيرين منهم يرسبون بعد ذلك خلال مرحلة التعليم الجامعى ، وإذا علمنا أن الطالب كان يتعلم اللغة الإنجليزية إما للوصول إلى التعليم العالى أو التفاهم بها مع الموظفين الانجليز العديدين الذين كانوا يملأون دواوين الحكومة عند توظفه . وقد زال هذا السبب الآن واقتصر فى تعلم اللغة على الغرض الأول وهو البحث العلمى والاتصال بالآراء الحديثة ، عرفنا مقدار التضحيات الجسام التى تضحى بها مصر الآن من مجهودات أبنائها ومن أموالها علاوة على إرهاق الطلبة فى سبيل توصيل عدد ضئيل من أولئك الأبناء إلى التعليم الجامعى للانتفاع بتلك اللغة »

بعد هذا كله لا نرى أمامنا غير طريق واحد للسير بالتعليم قدماً نحو الديمقراطية الحقة ونحو النظم التعليمية والاجتماعية السليمة ونحو مصلحة مصر وشعبها وذلك بإلغاء اللغة الأجنبية من المدرسة الابتدائية إلغاء تاماً وإدماجها مع غيرها من مدارس الأطفال فى مدارس شعبية موحدة

عبد العزيز فهمى مطر

---

(١) فيلسوف انجليزى فى الأخلاق (١٦٧١ — ١٧١٣) كان يرى أن الخير فى توازن غريزتى حب النفس والغير

(٢) من علماء الانجليز فى الأخلاق واللاهوت (١٦٩٤—١٧٤٦)

(٣) أحد علماء الاقتصاد الأيكوسيين (١٧٢٣ — ١٧٩٠)

(٤) P. Janet: Eléments de philosophie scien. et phl. Morale.

(٥) Challely : La philosophié scien. et phl. morale.

أيضاً الآراء الأخلاقية باختلاف الأمم والشعوب[1] كيف كان من الممكن إذاً — لو أن هذا المذهب صحيح — أن توحى هذه الحاسة التي لا تضل كما يقولون هذه المبادئ المختلفة أشد الاختلاف بل المتناقضة في بعض الحالات ؟ ثم إننا نحس أحياناً كثيرة تنازعاً وخصومة مؤلمة حادة في ضمائرنا حتى ليكون أسهل على المرء أن يعمل واجبه متى تبين له من أن يعرفه بوساطة هذه الحاسة

إنه من المستحيل أن يحدّ المرء نفسه بكتابة الأخلاق تحت إملاء الضمير ، وإذاً فلننتقل إلى بحث الطريقة الأخيرة لمعرفة المثل الأعلى الأخلاق ، وهي طريقة الاستقراء ، علّنا نصل إلى تحديده على نحو مقنع مرض للجميع

يرى فلاسفة مذهب اللذة الشخصية أمثال « أريستيب Aristippe السيريني و « أبيقور Epicure » اللذين عاشا في القرن الرابع قبل الميلاد ، أن الناس جميعاً يتطلبون اللذة في كل ما يعملون كما يفرون من الألم دأباً ، على اختلاف بينهم فيما يعتون باللذة وفي تطبيق هذه القاعدة التي هداهم إليها استقراء ما فطر عليه الناس من طباع . كذلك ترى بعض فلاسفة الأخلاق المحدثين يصدرون عن هذا المذهب. هاهو ذا « جرمي بنتام » الفيلسوف الانجليزي المعروف في القرن الثامن عشر يؤكد بعد استقراء طويل أن جميع الناس تبعثهم المنفعة أو السعادة على أعمالهم حتى في الحالة التي يضحون فيها بعض المنافع أو يقبلون شيئاً من الآلام ، لأن ذلك معناه تطلب منفعة أكبر وأفضل . إلا أنه يضيف إلى هذا تأكيداً آخر هو أن اللذة تكبر وتتسع حتى تشمل أكبر عدد ممكن من الناس ، وأن سعادة كل امرئ لا تنفصل عن سعادة الجميع . من أجل هذا يجب على الإنسان باسم سعادته أو منفعته الخاصة أن يبحث في أعماله عن « أكبر مقدار من السعادة لأكبر عدد ممكن » . وفي القرن التاسع عشر نجد « ستيوارت ميل » يبدأ بحثه بأن جميع الناس يبحثون عن السعادة ، فيرى لهذا أن تكون الغاية الإنسانية والمثل الأعلى الأخلاق هي « السعادة النبيلة التي تأتي من اللذائذ العالية ، مثل لذة التضحية في سبيل إسعاد الغير والإنسانية »

(١) يرجع إلى العدد ٢٩١ من الرسالة

حقاً هذا كله مقنع مرض في نتائجه إلى حدّ ما ، وحقائق نفسية لاشك فيها . ولكن بأي طريق وصلوا إليها ؟ ها نحن أولاء نقبل مؤقتاً فكرة أن جميع الناس يبحثون ويجرون وراء لذاتهم أو منافعهم أو سعاداتهم ، غير أننا إن وقفنا عند هذا التحقق الاستقرائي بقينا دون مستوى الأخلاق التي نبحث فيما يجب أن يكون لا فيما هو كائن بالفعل . وإن أردنا من المرء أن يوازن ويختار بين هذه اللذائذ الخاصة أو العامة أو بين هذه الوسائل والأعمال التي تؤدي إليها ، تدخل حقيقة في مملكة الأخلاق ولكن في الحين نفسه تترك مملكة التجارب والاستقراء !

فضلاً عن هذا فأخلاق النفعة العامة تصطدم بهذا الاعتراض الذي لا محيص منه وهو أننا في عديد من الحالات نجد تمازجاً بين المنفعة الخاصة والنفعة العامة ؛ منفعتي أن يقتتل الناس للدفاع عن حقوقي ووطني وألا أخاطر بنفسي بالدفاع عنهم ، ومصالحي الخاص أن يكون مال الغير على حبل الذراع حتى أنتفع به كما أريد ، وأن أقبض يدي وأحفظ مالي فلا أساعد به سواي . وإذاً في مثل هذه النازعات بين المنفعتين أرى أن أخلاق « ميل » التي تدعو للايثار تدعوني لجعل منفعتي تابعة للمصلحة العامة ولتضحية تلك في سبيل هذه متى تطلب الأمر التضحية . ولكن كيف يمكن قبول هذه التضحية أي تضحية النفعة الخاصة في سبيل العامة مع ما سبق أن قرروه من أن جميع الناس يجرون وراء لذاتهم ومنافعهم الخاصة ! أليس من التحايل الفضوح أن نضع تحت عنوان أخلاق النفعة الخاصة أخلاقاً هي الإيثار الصريح ؟

إن من التعسف بل من المستحيل أن نأخذ من التأكيد الذي سبق تقريره وهو أن الناس يبحثون وراء لذاتهم أو سعاداتهم أنهم يجب أن يختاروا بين مختلف هذه اللذائذ والسعادات وأن يضحوا باللذات الدون التي مرجعها إرضاء عاطفة الأثرة في سبيل الحصول على لذة من نوع أسمى وأعلى يحسها المرء من التضحية في سبيل سعادة الآخرين ! ذلك التأكيد الاستقرائي وهذا الاختيار الواجب أخلاقياً طرفان لا يلتقيان على رأي « باسكال »

وأخيراً فكل المذاهب الأخلاقية التي تدخل فيها تجارب الحياة واستقراء ما فيها من البواعث والغايات تتحطم أمام هذه

الحقيقة، وهي أن الاستقراء يعرفنا ما كان، بينما تقول لنا الأخلاق ما يجب أن يكون .

هناك بعض الاجتماعيين الأقرب عهداً من سابقيهم عرضوا ضرباً آخر من الأخلاق الاستقرائية ، هو أن الأخلاق ترجع أولاً إلى علم العادات الذى مرجعه استقراء التاريخ وملاحظة الحاضر ، يتداخل فيها فن عقلى ينظر فى الظواهر الاجتماعية والأخلاقية لتعديل مايجب تعديله منها . هـذا هو المذهب الذى عرضه الأستاذ البحاثة « ليڤى برهل » فى كتابه الآنف الذكر : « الأخلاق وعلم العادات » . الأخلاق أعنى مجموع الواجبات التى تفرض على الضمير ، لاتستند إلى مبادىء نظرية قامت عليها. إنها عمل ، إنها حقيقة ؛ عمل اجتماعى ، وحقيقة اجتماعية كذلك . « إننا لا نعمل أخلاق شعب أو أخلاق تمدن لأنها عملت سابقاً »

إنه بلا شك قد يحصل أن يعارض المرء الحقيقة الأخلاقية بمثل أخلاق أعلى وصل إليه بالنظر. ولكن هذا البحاثة يجيب عن هذا بقوله : « فى الواقع ليس هذا المثل إلا ظهوراً فى غير آنه مع بعض التغيير لحقيقة اجتماعية فى ماض بعيد أو مستقبل ليس أقل منه بعداً ؛ وهذا يكون بالدقة بعض الشىء من هذه الحقيقة التى يجعلونه معارضاً لها » .

هذا ملخص مايراه هذا العالم.

فما الرأى فيه ؟ موعدنا فى بيان ذلك الكلمة الآتية وهى تمام هذه البحوث إن شاء الله تعالى .

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين